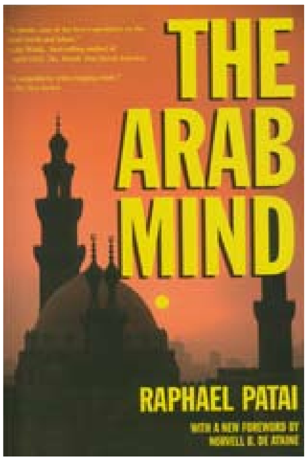

العقل العربي 55

تأليف: رافائيل باتاي

ترجمة: علي الحارس

الفصل الثالث عشر
الوحدة والصراع

4. الميل إلى الصراع

يقول أحد المنتمين إلى الطبقة الملكية التي حكمت اليمن في السابق:

> لا تزال شعوب اليمن وعسير شعوبا متوحشة. فالأخ لا يثق بأخيه عندهم. إنهم يعيشون حياة لا يغيب عنها الخوف والقلق... إنهم كالحيوانات البرية التي تخاف من أي شيء أو أي شخص قد يقترب منها. وفيما يخص اليمن؛ فإن شعبنا جميعه مسلح. وجميعه يقاتل. وجميعه يقتل لأتفه الأسباب. إننا شديدو الغيرة على حقوقنا... وإذا حدث في قرية أن تنازعت عائلتان فجأة تجد القرية كلها انقسمت كلها إلى فريقين يشاركان في القتال. وقد تتطور الأحداث إلى حرب. ولن يسأل أحد عن سبب القتال إلا إذا خمدت الحرب. إنهم يقاتلون أولا ثم يسألون عن سبب القتال. هذه هي الحياة في اليمن. حتى أننا نحارب أقرباءنا؛ فالأخ يقاتل أخاه. والابن يقاتل أباه.[1]

بالرغم من أن هذا الوصف يحمل نبرة لا شك في أنها تعكس استعلاء الطبقة العليا على الطبقة السفلى من أبناء الريف. أضف إليها الميل العربي للمبالغة. فإن القتال الداخلي متعارف عليه بكثرة في كافة أنحاء العالم العربي إلى حد يجعل المرء يتقبل حقيقة الوضع العام الموصوف في النص السابق؛ وهذا لأن من الحقائق المقبولة كون التاريخ المحلي لأي قطر عربي يتكون بشكل رئيسي من صراعات بين فريقين متضادين على امتداد كافة الطبقات المتتالية في السلّم الاجتماعي. وفي معظم الحالات نجد

---

1) أمين الريحاني: ملوك العرب؛ ج1 ص117.

www.iraqfuture.net شبكة عراق المستقبل

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل©

الفصل الثالث عشر: الوحدة والصراع

أن قريتين متجاورتين تنتميان إلى فريقين متضادين. وهذا لوحده كاف للتحريض بينهما. وفي مصر العليا، مثلا، نجد أن قريتين على ضفتي قناة مائية كثيرا ما تدخلان في قتال يخوضه الرجال الأشداء بعصيهم الغليظة، أو بأسلحة أكثر خطرا في بعض الأحيان. إذ يقوم رجال إحدى القريتين بعبور القناة ودخول سوق القرية العدوة، ويفتعلون قتالا هناك. وفي المناسبة القادمة، يرد رجال القرية الأخرى هذه الزيارة. وفي السنين الأخيرة انتقلت هذه العداوات التقليدية إلى الميدان السياسي. والأمثلة على هذا المزاج القتالي بين القرى كثيرة إلى حد يجعل ذكرها هنا أمرا مملا.

بحسب الظاهر، يبدو أن درجة العداء بين أي جماعتين تزداد بنقص المسافة التي تفصل بينهما، وذلك القرب لا يعدو في كثير من الأحيان كونه مسألة قرب في المكان؛ إذ ينشأ العداء الأشد بين قريتين إذا كانا أقرب لبعضهما البعض من باقي القرى الأخرى، وقد يتحول هذا القرب ليلعب دورا في العداء بين حيّ وآخر أو منطقة وأخرى في نفس القرية أو البلدة. ونجد مثالا على ذلك في بلدات منطقتي معان والكرك في الأردن، ولغوات في الجزائر، وسيوة في صحراء مصر الغربية، وقرية سيلوة في مصر العليا، وقرية بير قرب القدس.

تقوم الأسر الكبرى المتحاربة في بعض الأحيان بتحويل أتباعها إلى أحزاب سياسية. ويلاحظ هذا التطور على مستويي القرية والمدينة على حد سواء؛ فعلى سبيل المثال: في بلدة سيرس الليان الواقعة في دلتا النيل، وهي قرية تعداد سكانها 22 ألفا، اعتاد الناس على وجود انقسام تقليدي ما بين شمال القرية وجنوبها اللذان يترأسهما شيخان ينتميان إلى الأسرتين الكبريين، ويتكون كل قسم من عدة جماعات كبيرة تنحدر منه. ويتوزع كل قسم بين مسلم وقبطي. وعندما تم إنشاء منصب (عمدة) في القرية في القرن التاسع عشر، تم اختيار زعيم إحدى الأسرتين لشغل المنصب. وبعد ثورة حزب الوفد عام 1919، أصبحت القرية مهتمة بالسياسة وقامت بممارستها، وتحول عندها الانقسام النسَبي إلى خصومة سياسية تجسدت في أحداث دفعت الباحث الذي درس القرية إلى أن يخفف من وطأة الحقيقة بوصفها بأنها «من المفزع ذكرها».

www.iraqfuture.net شبكة عراق المستقبل
كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل©

الفصل الثالث عشر: الوحدة والصراع

ويمكن ملاحظة تطور شديد الشبه في مدينة القدس خلال فترة الانتداب البريطاني، إذ توجد هنالك عائلتان ضمن السكان العرب هما: الخالدي والحسيني، وهما يمثلان الشطرين: القيسيين واليمانيين على الترتيب منذ أجيال عديدة، وفي فترة الانتداب دخلت العائلتان حالة الاستقطاب السياسي، فأصبحتا تنافسان على الزعامة السياسية للمدينة، وهي زعامة كانت تعني التربع على قمة الهرم السياسي الفلسطيني بأكمله.

كما تتصف البنية الاجتماعية اللبنانية بالانقسام المزدوج في كل تجمع مناطقي أو عرقي، وهذا ما هو إلا إفراز محلي للتقليد العربي القديم القائم على الشطرين المتنافسين. إن العشائر المنحدرة من أصل واحد والقرى ومناطق المدن وحتى العوائل الصغرى تبدو عليها مظاهر الانشطار المزدوج، ودائما ما تستغل السياسة هذه الازدواجية التي تعتبر ميزة مهمة تتمكن بواسطتها من اختراق الحدود الحساسة على الرغم من الأهمية الهائلة التي تولى للتوجه الديني في العالم العربي بشكل عام، ولبنان بشكل خاص: حيث أن جماعات تنتمي إلى طوائف من الدين ذاته، أو إلى أديان مختلفة، يمكن أن تشكل أجزاء من الشطر النسَبي ذاته، وبشكل معاكس، قد تكون الطائفة أو العقيدة ذاتها تضم أعضاء في كلا الشطرين. وعلى سبيل المثال، كانت كل طائفة دينية في لبنان أثناء الحرب الأهلية الأولى عام 1958 منقسمة بين شطر يوالي الحكومة وآخر يتمرد عليها، وكان من الطبيعي في حالة شهدت قتالا شاملا كهذه أن تنفتح جروح الكثير من العداوات الداخلية القديمة، فقامت العديد من العشائر المتعادية بمحاولة تسوية الخلافات القديمة وأخذ ثارات طالما خططت لها ضد عدو قريب مفضل على غيره.

إن العصيان الشعبي، متمثلا بالمقاومة المسلحة للحكومة، هو مما يحتمل حدوثه بشدة في الدول العربية؛ فالحروب الداخلية كالصراع بين الجمهوريين والملكيين في اليمن، والفصائل المسلحة الفلسطينية والجيش الأردني، تبدو من وجهة النظر التاريخية تمظهرات لميول الاقتتال الأخوي عند العرب، ولكن حتى حينما لا تظهر هذه الميول على السطح، فإن أغلبية العرب يؤمنون بأن العالم كله هو مكان عدائي يجب أن يكون المرء فيه

www.iraqfuture.net شبكة عراق المستقبل
كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل©

الفصل الثالث عشر: الوحدة والصراع

مستعدا وقادرا على الدفاع عن نفسه وعائلته بقوة السلاح، حتى وإن كان عدوه هو جاره الملاصق له. والحكومات العربية مدركة بشكل جيد لهذه الحقيقة، لذلك تراها تتردد، إلى وقت قريب على الأقل، في فرض إرادتها على الناس في القضايا التي يعارضونها فيها؛ فعلى سبيل المثال، عجزت الحكومة العراقية عن فرض برنامج حكومي عام 1935 لأن الشعب العراقي كان يمتلك ما لا يقل عن مئة ألف بندقية مقابل 15 ألفا تمتلكها الحكومة.[1]

يمكننا أن نؤكد ترافق العدوانية مع القرب الايديولوجي لا مع القرب المكاني، وبما أن الدين يعد إلى يومنا هذا أهم العوامل الايديولوجية عند العرب، فقد يتبادر إلى الذهن أن العداء بين العرب المسلمين ونظرائهم المسيحيين أشد من العداء بين الطوائف العربية المسلمة، لكن قاعدة (أكثر قربا = أكثر عداء) تفرض نفسها على أرض الواقع هنا أيضا، وهذا ما خلصت إليه دراسة قام بها الباحثان في علم النفس بروثرو (Prothro) وميليكيان (Melikian) في الجامعة الأمريكية في بيروت، وكان النموذج المعتمد في هذه الدراسة استطلاع رأي قديم أجري على الطلاب عام 1935، ومما أسفرت عنه الدراسة أن الأعوام الستة عشر الماضية شهدت تزايدا في العداء بين السنة والشيعة إلى حد عبر فيه السنة عن عداء ضد الشيعة يفوق ما أظهروه تجاه الطوائف المسيحية، وأن العداء بين مجموعتين لهما غاية واحدة ووسائل مختلفة لتحقيقها كان يفوق في حالات كثيرة العداء بين مجموعتين مختلفتي الغاية: إذ قال مسلم واحد فقط من بين 49 مسلما أنه يتمنى أن يتعرض المارونيون جميعا للقتل، بينما قال خمسة من بين 54 مسيحيا غير ماروني أنهم يتمنون الأمر نفسه للموارنة.[2]

إن الميل العربي إلى الصراع يؤدي إلى عواقب أكثر سوءا في المجال السياسي مقارنة بغيره؛ فبغض النظر عن الطرح المثالي لفكرة الأمة العربية التي تلهج بذكرها ألسنة القادة العرب في كافة البيانات الرسمية، فإن الواقع يقول أن العلاقة بين الحكومات

1) مجيد خدوري: العراق المستقل؛ ص36.
2) بروثرو (Prothro)، ميليكيان (Melikian): البعد والتغير الاجتماعي في الشرق الأدنى؛ ص3-11.

www.iraqfuture.net شبكة عراق المستقبل
كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل©

الفصل الثالث عشر: الوحدة والصراع

والأحزاب سيطر عليها العداء المرير منذ الحرب العالمية الثانية التي كانت بداية الوعي السياسي العربي الكامل والنشاط السياسي العربي المكثف. وفي أفضل حالاته كان هذا العداء ساكنا دون حركة لبرهة من الزمن. وفي أسوأ الحالات كان يندفع إلى العلن بشكل انتقادات نارية. وإعداد لاغتيالات وهجمات وتهديدات على جانبي الحدود. وكل عدة أشهر كان يحدث انقلاب عسكري يليه إعدام أو سجن القادة المخلوعين. وبين هذين الوضعين. كانت تجري سلسلة طويلة من اللقاءات بغرض تسوية الخلافات وصياغة القرارات في القضايا ذات الاهتمام المشترك على المستوى العربي. ولكنها كانت تنتهي في معظم الأحيان بخلافات يفوق عددها ما كانت عليه عند بدء اللقاءات. وفي الواقع. فإن الجامعة العربية. والتي نشأت في الأصل كأداة لتحقيق الوحدة العربية. طالما كانت المكان الذي تتضارب فيه مصالح الدول العربية.

من الطبيعي أن لا يغيب عن المراقب الخارجي ملاحظة هذا العجز عن تفادي الانقسام والخلاف والاتهامات المتبادلة؛ حتى أن جمال عبدالناصر تمادى إلى حد استنكار ما يعامل المصريون به بعضهم البعض من عدوانية. فكتب أنه لم يسمع أبدا مصريا يتكلم بإنصاف عن مصري آخر. ولم ير مصريا «فتح قلبه بالصفح والغفران والحب لأخيه المصري». أو «لم يجند وقته لتدمير وجهة نظر مصري آخر».[1] ويميل قادة آخرون إلى حصر انتقاداتهم بالحكومات العربية الأخرى. والشكوى من الانقسام والتآمر الذي تتصف به العلاقات العربية-العربية على مستوى القيادات؛ ونلمس ذلك جليا في كتاب الملك حسين (حربي مع إسرائيل): ففيه اشتكى الملك حسين من أن بعض الإذاعات العربية تعلن رغبتها بتحرير عمان قبل تحرير فلسطين. وأنه اضطر للتعامل مع 12 مؤامرة حيكت خارج الحدود.

وقد تبين من خلال الملاحظات التي سطرها معظم المحللين السياسيين العرب أن العرب يجدون من الصعب عليهم أن ينحّوا جانبا النزاع والتخوفات وإن كان ذلك حين مواجهة عدو مشترك؛ ففي كتاب (العراق الجمهوري) ناقش د. مجيد خدوري العلاقات

1) جمال عبدالناصر: حرية مصر: ص35-36.

www.iraqfuture.net شبكة عراق المستقبل
كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل©

الفصل الثالث عشر: الوحدة والصراع

العراقية السورية من أحد جوانبها؛ فذكر أن عام 1956 شهد تمركز قوة عسكرية عراقية في الأردن لمساعدته على مواجهة أي هجوم إسرائيلي محتمل. ولكن السوريين اعتبروا القوة العراقية غير قادرة على الدفاع عن الأردن، وفسروا الأمر بأنه تهديد لسوريا أكثر من كونه تهديدا لإسرائيل. كما أشار خدوري في سياق آخر إلى الانتقاد الذي تعرض له القادة العرب الذين يهدرون القوى البشرية العربية في الحرب الأهلية اليمنية.[1]

وكثيرا ما طرح المحللون السياسيون العرب المعاصرون تعليقاتهم حول العوامل التي تحول دون الإنجاز العملي للوحدة العربية التي يؤمن العرب جميعا بها ويرغبون بتحققها. وفي الكتاب الذي ألّفه نبيه أمين فارس بالاشتراك مع محمد توفيق حسين هنالك ذكر لثمانية عوامل، وهي: تنافس الأسر الحاكمة، القوى الخارجية، الأقليات الدينية، الأقليات القومية، تنوع الأهداف السياسية، اختلاف مستوى التطور السياسي، اختلاف المستوى الاقتصادي والاجتماعي، اختلاف المستوى الثقافي.

إن العوامل السابقة لا يمكن استبعاد دور أي منها في العالم العربي الحديث. لكن هنالك تعليقان يجب أن يذكرا، وهما: أولا، تبدو هذه العوامل بعيدة بالكامل عن مجريات التاريخ وتتحدث عن سياق معاصر، وذلك باستثناء مسألة الأقليات التي تعتبر أمرا ذا أهمية ضئيلة نظرا لوجود أغلبية عربية مسلمة واسعة النطاق. وقد تعدى المؤلفان ذلك إلى إعطاء انطباع بأن ما حدث كان نتيجة لقيام الغرب بتمزيق العالم العربي، وتقديم أنظمة الحكم الملكية والجمهورية وغيرها، مما نجم عنه ظهور ميول وطنية وقومية محلية أدت إلى تغيرات اقتصادية واجتماعية متفاوتة بالإضافة إلى منجزات ثقافية شديدة الاختلاف. كما أهمل المؤلفان ذكر الأسس الكثيرة التي أدت إلى حالة التجزئة العربية، وهي أسس تمضي جذورها بعيدا في الماضي العربي في فترة الجاهلية وأوائل الإسلام، ولا تزال تمد التجزئة بالحياة إلى يومنا هذا.

---

1) خدوري: مصدر سابق؛ ص24، 223.

www.iraqfuture.net شبكة عراق المستقبل
كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل©

الفصل الثالث عشر: الوحدة والصراع

أما التعليق الثاني فهو أن المؤلفين لم يذكرا شيئا عن التجزئة التي تتسبب بها النزاعات القبلية التي تؤلب أفراد جماعتين متجاورتين على بعضهما البعض دون سبب يذكر في معظم الحالات غير أنهما يشكلان فرعين من القبيلة ذاتها وفي ذلك ما فيه من العداء والكراهية والتنافس الذي يعود إلى قرون مضت. إن هذه العداوات بين الكتل الاجتماعية التي لا تختلف من الناحية العرقية، كما في حالة قريتين متقابلتين على ضفتي النيل، تبقى عامل مقسما قويا في العالم العربي حتى وإن استبعدنا كافة الأسباب الأخرى التي ذكرها فارس وحسين.

وفي كتاب آخر ألفته الكاتبة ليلى قاضي حول مؤتمرات القمة العربية نجد تحليلا للعوامل المقسمة يأخذ منحى أكثر اهتماما بالشأن السياسي، وبالأخص ضمن مستوى القيادات. وترى قاضي في كتابها، والذي جاء بعد حوالي 12 عاما من الكتاب السابق، أن الفترة (1936-1950) كانت فيها «التنافسات والطموحات المتضاربة للقوى الاستعمارية في الشرق الأوسط قد تم تمريرها على نطاق واسع إلى الأنظمة التي باتت تحكم الدول العربية بعد استقلالها»، وأن القوى الاستعمارية السابقة استردت رغم ذلك «ما يكفي من القوة للتأثير على مختلف القادة العرب من أجل أن يعملوا وفق مصالح القوى الاستعمارية السابقة». وتشير قاضي بعد ذلك إلى أن «تفاوت المصالح بين الدول العربية ربما يكون ناجما عن الطموحات الشخصية لبعض القادة العرب الذين يسعون إلى توسيع نطاق نفوذهم إلى أقصى المستطاع على حساب الدول العربية الأخرى... وهذا يكشف بصراحة عن العقلية القبلية القديمة لهؤلاء القادة». ثم تنتقل قاضي إلى العامل الثالث فتقول بأن بعض الدول العربية، مثل سوريا ولبنان والعراق، كانت فيها الأنظمة الحاكمة لا تقتصر في تمثيلها على الكيانات الإقطاعية التقليدية وشيوخ العشائر والعوائل الارستقراطية، بل شملت الطبقة الوسطى الناشئة (البرجوازية) التي قدمت قيادات الصراع من أجل الاستقلال، وأن هذه الطبقة التي كانت رجعية في رؤاها وأساليبها وممارساتها قد كانت

www.iraqfuture.net شبكة عراق المستقبل
كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل©

الفصل الثالث عشر: الوحدة والصراع

متركزة في المدن، ومنشغلة أساسا بالتجارة مع القوة الاستعمارية السابقة مما جعلها معتمدة عليها.

كما لاحظت قاضي أن الفترة (1964-1966) شهدت دخول عامل جديد مع استمرار العوامل السابقة؛ وهو:

> انقسام العالم العربي إلى معسكرين: معسكر ثوري يدعو إلى تبني المعايير الاشتراكية المتطرفة عموما لعلاج العلل الرئيسية المسؤولة عن التخلف. ومعسكر رجعي يدعو إلى التلازم بين المحافظة على الظروف السائدة وإجراء بعض الإصلاحات الاجتماعية المعتدلة.

وترى الكاتبة أن هذا التفاوت قد يوجد حتى ضمن الدولة العربية الواحدة أيضا فتقول: «قد يكون لفئات عديدة من شعب الدولة العربية الواحدة ولاء أكثر وشعور بتآلف أكبر حيال النظام الثوري والسياسة المتبعة في دولة أخرى مقارنة بما يشعرون به تجاه النظام المحافظ في دولتهم». ثم تحذر قاضي من أن هذين «النظامين»، أي الثوري والرجعي (أو المحافظ)، يقومان «بالمضي سريعا نحو نقطة لا يمكن لأي منهما أن ينجو فيها من الزوال إلا على حساب تعرض الآخر إلى تعديل جذري (إذا أردنا تجنب الحديث عن القضاء عليه نهائيا)». ويظهر اختلاف المصالح بين المعسكرين من خلال الدعوات المنفصلة لعقد المؤتمرات العربية، والتحالفات التي يستمر بها أو يسعى إليها كل منهما في الساحة الدولية، إذ «ترتبط مصالح المعسكر الرجعي مع القوى الرأسمالية الغربية بشكل وثيق، بينما تتوثق أواصر التعاون شيئا فشيئا بين المعسكر الثوري والقوى الشيوعية الشرقية».[1]

1) ليلى قاضي: مؤتمرات القمة العربية والمشكلة الفلسطينية (1936-1950)، (1964-1966)؛ ص191-193.

www.iraqfuture.net شبكة عراق المستقبل
كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل©

الفصل الثالث عشر: الوحدة والصراع

وينبغي هنا أيضا أن نشير إلى أنه على الرغم مما تحدثه فجوة المحافظة/الثورية من مشكلة خطيرة أكيدة في العالم العربي، فإن من التبسيط المخل أن تعزى حالة التجزئة العربية إلى هذا العامل وحده.

إن ما خلصت إليه من التحليل السابق هو أن حالة التجزئة العربية مظهر من مظاهر ميل كان ولا زال جزءا من الشخصية العربية منذ عصر الجاهلية، سواء أكان ذلك على مستوى الممارسة الفعلية أو الإمكانيات؛ فالنزعة القتالية تظهر إلى السطح بتأثير أصغر شرارة تقدح أوارها، فيبدأ الشجار ويتطور سريعا إلى عنف جسدي؛ وفي ما يتعلق بهذا التطور، يبدو أن جاهزية العربي لإطلاق الإهانات العنيفة والتهديدات، إنما هي في الأصل آلية يتمثل هدفها النهائي في منع النزاع اللفظي من التحول إلى عنف جسدي، وكلما كان ما يمكن أن ندعوه «النزاع اللفظي» قادرا على الاستمرار، فإن الآمال تبقى بأن تخمد المشاعر الثائرة بالكلمات وأن تبقى السيوف في أغمادها. وبازدياد سوية الانفعال في الإساءة اللفظية، تزداد احتمالية أن تقوم هذه الإساءة بتوفير الرضى الكافي مما يمنع تطور الموقف إلى عنف جسدي؛ ولكن إذا حدث وبدأت المرحلة الثانية من الصراع، أي مرحلة العنف الجسدي، تتفعل آليات نفسية أخرى أقدم من السابقة لتجعل من المستحيل عمليا لأي طرف في النزاع أن يتوقف عن القتال إلا إذا انهزم بشكل كامل ونهائي، أو إذا أدت وساطة إلى إنجاز تسوية لهذا النزاع.

إذا ما أخذنا جميع العناصر السابقة بعين الاعتبار فإن التوتر القائم بين الوحدة والصراع يمكن أن يعتبر المثال الأمثل عن الهوس العربي بالمفاهيم المثالية، ومنها الوحدة في بحثنا هذا، إذ تراه يتمسك بها عاطفيا حتى وإن كان يعلم بأنها تتناقض وتتنافى مع الواقع، والواقع في هذه الحالة تحكمه حالة الصراع. ويعبر الباحث مورو برغر عن ذلك بقوله:

www.iraqfuture.net شبكة عراق المستقبل
كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل©

الفصل الثالث عشر: الوحدة والصراع

العرب لا يميزون بين الجانبين: المثالي والعملي؛ فهم يدعون بأنهم يعتقدون -خلافا للواقع- بأن المثالي متحقق بالممارسة وأنه متطابق مع العملي، وذلك بالرغم من أن المثالي ليس غير المعيار الذي يستند إليه تقييم العملي.[1]

إن هذا الوضع ينتابه التعقيد من منطلق أن «الوحدة» ما هي إلا مفهوم مثالي شديد التجريد وبعيد عن الواقع، بينما يتمتع الصراع بأسس وسوابق تاريخية في قيم العالم العربي القديم كالرجولة والعدوانية والشجاعة والبطولة والإقدام والثأر، وهي قيم مجدها الشعراء في قصائدهم وبقيت ماثلة في ضمير الفرد العربي تدفعه نحو الصراع وإن كان يؤمن بوحدة العرب وإخوتهم.

من الممكن تمييز مصدرين من مصادر الميل العربي إلى الصراع دون عناء: الأول هو التنافس بين الأقارب الذي تزرعه الأم العربية في أطفالها؛ وهذا من الأدوات المفضلة التي تستخدمها الأم العربية لتحسين سلوك الطفل من خلال تحريضه على إبداء استجابة مدفوعة بالغيرة من هؤلاء الأقارب. فمثلا: إن رفض الطفل تناول الطعام تقول له: «إن لم تأكل، أعطيت الطعام لأخيك» وتقوم بحركة توحي بأنها على وشك إعطاء الطعام لأخيه. ويكفي ذلك في معظم الأحيان لتغيير قرار الطفل المعاند؛ أو إذا عجز الطفل عن أداء ما تطلبه أمه منه أو رفض القيام به فإنها تقول له: «انتبه، أخوك يمكنه القيام بذلك، فلماذا لا يمكنك؟». إن تكرار هذه المشاهد بكثرة أمام الطفل يقوده في سن مبكرة إلى اعتبار أخيه، أو قريبه، خصمه الرئيسي، ومن الطبيعي أن تقارب العمر بين الطفلين يزيد شدة شعور التنافس بينهما. وفي بعض أنحاء العالم العربي يعتبر التنافس بين الأقارب محرضا أساسيا في عملية نمو الطفل، ويتم تحريضه عمدا. وتتبين بقايا هذه الأداة المستخدمة لتنشئة الطفل في عقل الفرد العربي البالغ من خلال الإحساس الملح بالتنافس، وبالأخص بين الأفراد والجماعات الذين يحتلون نفس الموقع في المنزلة النسبية، أو يتواجدون في أمكنة متجاورة.

1) مورو بيرغر (Morroe Berger): العالم العربي المعاصر؛ ص160.

www.iraqfuture.net شبكة عراق المستقبل
كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل©

الفصل الثالث عشر: الوحدة والصراع

كما يعتبر تفضيل زواج الأقارب عاملا آخر يضاف إلى عوامل الميل إلى الصراع. ففي زواج الأباعد يكون للرجل روابط ألفة مع جماعة ليست من أقاربه تزوده بزوجة، وهنا تلعب الزوجة دور حلقة وصل طبيعية بين جماعتين ينتمي زوجها إلى واحدة منهما، وينتمي إلى الأخرى عائلتها من جهة الأب. وإذا ما حدث توتر أو خلاف تميل هاتان الجماعتان إلى تفادي تدهور الوضع إلى صراع، وسيتردد أي رجل في حمل السلاح ضد جماعة مجاورة ينتمي إليها آباء وإخوة زوجته أو أزواج بناته وأخواته. لكن واقع المجتمع العربي بعكس ذلك؛ فالبنية الاجتماعية العربية تأسست على تعزيز عزلة الجماعة، وذلك ما يتأتى عن النسب الأبوي الذي يفرض تحدر المرء من أبيه ثم جده الأبوي فصاعدا، دون اعتبار لجده من جهة الأم أو لأسلاف هذا الجد، وهكذا فإن الأم وإن تحدرت من جماعة خارجية (كأن تكون قرية أو بلدة أخرى) فلا يؤثر ذلك في اقتصار انتماء المرء على جماعة أبيه التي يدين لها بالولاء الكامل الذي لا شك فيه. وعندما يكون الوالدان أبناء عمومة، وهي الحالة المثلى، فإن ولاءه إلى نسبه الأبوي يتعزز من خلال حقيقة كون جديه من جهة الأب والأم أخوين، وأنه بالرجوع جيلا واحدا يصل به النسب إلى سلف واحد يكون في الوقت نفسه جد أبيه وجد أمه. إن الرجل الذي ينشأ في مجتمع تكون فيه الحالة المثلى كهذه العائلة المنغلقة على نفسها تجده يميل إلى النظر إلى الوحدات الاجتماعية المتعاقبة من حيث تزايد العدد باعتبارها امتدادات نسبية للعائلة ذاتها: فمهما كان حجم هذه الوحدات فإنها تبقى، نظريا، ذرية أبوية لسلف أساسي واحد. وكلما كبر حجم الوحدة تباعدت المدة الزمنية التي عاش فيها ذلك السلف المشترك؛ وكلما صغر حجمها تمتنت علاقات القرابة وقوي الشعور بها وازدادت الجاهزية للقتال في سبيل مصالحها ضد التشكيلات النسَبية الأبعد.

ومهما يكن من أمر فإن الحقائق تقول بأن الميل إلى الصراع يمثل خاصة مهمة من خصائص العقل العربي.

www.iraqfuture.net شبكة عراق المستقبل
كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل©